



لَكَ اللَّهُ يَا حَمَّةَ الصَّمْدُودِ ، لَكَ اللَّهُ يَا حَمَّةَ الْإِبَاءِ ، لَكَ اللَّهُ يَا حَمَّةَ أَبَيِ الْفَدَاءِ

مَاذَا عَسَى أَنْ يَكْتُبْ حَمْوَيِّ مَثْلِيْ عَنْ حَبَّةِ كَبِدَهُ ، وَمَسْقَطَ رَأْسَهُ ، وَذَكْرِيْ طَفَولَتِهِ ..

مَاذَا عَسَى أَنْ أَكْتُبْ عَنْ مَدِينَةِ وَادِعَةِ هَادِئَةِ تَبِيتَ عَلَىْ أَنْغَامِ نَوَاعِيرِ الْعَاصِيِّ ، وَتَصْبِحُ عَلَىْ أَصْوَاتِ الْعَصَافِيرِ مَعَ شَقْشَقَةِ

الصِّبَاجِ.

آآهَ عِنْدَمَا تَتَذَكَّرُ نَفْسِيْ تِلْكَ الأَيَّامِ الْجَمِيلَةِ الَّتِيْ عَشَتْهَا فِيْ مَدِينَتِيْ حَمَاءُ ، حَتَّىْ غَادَرْتُهَا وَأَنَا طَفَلٌ لَمْ يَأْلِمْ عَلَيْهِ الْعَاشِرَةُ مِنْ عَمْرِيْ

عَامِ 1980 عِنْدَمَا بَدَأْنَا سُسْتَنَمُ الْمَقْبُورِ الْأَسَدَ - مَلَأَ اللَّهُ قَبْرَهُ نَاراً وَسَعِيرَاً - بَارِتَكَابِ الْمَجَازِرِ وَالْجَرَائِمِ فِيْ هَذِهِ الْمَدِينَةِ الْوَادِعَةِ.

آآهَ لَذَكْرِيْ تِلْكَ الطَّفُولَةِ الَّتِيْ أَمْضَيْتُهَا بَيْنَ حَلَقَاتِ جَامِعِ السُّلْطَانِ ، وَبَاحَةِ جَامِعِ الْحَسَنِيِّ ، وَالْأَعْابِ جُورَةِ حَوَىِ ، وَنَسْمَاتِ قَلْعَةِ حَمَاءِ وَظَلَالِ حَدِيقَةِ أَمِ الْحَسَنِ .

يَا تِلْكَ الأَيَّامِ الْخَوَالِيِّ كَمْ فِيهَا مِنْ ذَكْرِيَّاتِ لَمْ يَقْطَعْ جَمَالَهَا إِلَّا أَزِيزَ الطَّائِرَاتِ وَأَصْوَاتِ الرَّاجِمَاتِ وَالرَّشَاشَاتِ وَصَيَّاحَ النِّسَاءِ وَبَكَاءِ الْأَطْفَالِ.

لم يكن عدواً إسرائيلياً ولا غزواًأمريكيًّا . بل كان إجراماً لم يشهد له العصر الحديث مثيل..

لقد أعادت مجررة اليوم إلى الأذهان تلك الأيام الخوالي ، وكأنني والله أسمع بأذني اليوم ما سمعته قبل أكثر من ثلاثين عاما من زبانية ذلك المجرم المقبور (نداء .. نداء .. نداء .. حرصاً على أرواح الأبرياء يمنع التجول) ثم بعد هذا النداء نسمع هدير الطائرات وقصف الدبابات وسط انقطاع للكهرباء ونفاد للمؤمنة الضرورية.

لازلت أتذكر تلك الأيام والجارات يرمين لبعضهن كسرات الخبز يهدحن بها أطفالهن ، ويسكنن بها جوع بطوننا . في ظل منع التجول والحصار المطبق.

لازلت أتذكر يوماً من أيام الشتاء الباردة ، ومع ساعات الفجر ، صرخ نساء ، بكاء أطفال ، ضجيج في الشارع ، أصوات أعقاب البنادق وهي تكسر باب البيت ينادون علينا بالخروج ، لنصفن جميعاً رجالاً وشيوخاً ونساء وأطفالاً ، والجميع وجهه إلى الجدار ، وأصوات الرشاشات الأوتوماتيكية تضم الآذان. في مشهد لأول مرة أراه في حياة الطفولة البريئة. لازلت أذكر حديث والدي وقد كنت طفلاً صغيراً .. أرجوك دعنا نسافر ، دعنا نذهب ، الله يعلم ما الذي ستقبل عليه البلد ، وهو متثبت بمدينته التي عاش فيها طفولته وشبابه ويعز عليه فراقها.

لازلت أذكر دموع الأقارب وهم يودعوننا ويدعون لنا بالسلامة ونحن متوجهون إلى ديار غربة لم نعرفها ولم نألفها. لازلت أذكر عمي الأكبر وهو يدفع والدي للسفر ويقول له احمد الله أن وجدت عقداً في الخارج ، فالكثير يتمون ذلك في هذه الظروف . وهو يقدم رجلاً ويؤخر أخرى عند كاونتر المطار وعيونه لا يرقى دمعها.

معك حق يا أبي ، ولم لا تعيش هذه البلدة الجميلة التي عشت فيها طفولتك وشبابك ، لقد أدركت الآن لماذا كنت متعلقاً بمدينتك . واسوقاه إليك يا حماة وأنا لم أعرفك إلا في طفولتي .

وها قد مضت أكثر من ثلاثين عاماً ، حتى عشنا في الغربة أكثر مما عشنا في مدينتنا حماه.

لم يكن ما شاهدته من إرهاصات مجررة حماه إلا نزراً لا يستحق الذكر أمام ما رأه من حضروا المأساة بعد مغادرتنا سوريا الحبيبة.

وها هو الأسد الابن اليوم في جمعة أطفال الحرية أراد أن يعيد للأذهان أحاديث مجررة حماه عام 1982 والتي لم تندمل جراحها بعد ، وكأنه يظن بحماقته وصفاقته أنه سيكسر إرادة هذا الشعب الأبي المناضل الذي لا ترهبه آلة الحرب والإجرام. لقد تذكر الشعب الحموي اليوم أحاديثاً مرت عليه في التاريخ القريب مضروبة بدماء الشهداء الذين تجاوز عددهم خمسين ألفاً . لكنها لم تكسر إرادته ولم تثن عزيمته.

حتى خرجت حماه عن بكرة أبيها في مظاهرات تذكر ببوم المحشر.

لقد رأى أهل حماه المرابطون اليوم هذا الإجرام يتجدد في عهد الابن السفاح وكأنه لا يدرى أنه يواجه شعراً لا يملك سلاحاً مادياً ولا عدة ولا عتاداً، وإنما يملك أقوى من ذلك كله. يملك سلاح الإيمان والتوكيل على الله والعزيمة والإرادة القوية.

فهمما فكر وقدر هذا الجهول المعتوه فلن يعني إلا الحسرة والندامة . وكأنه لم يخبر أهل حماه ولم يعرفهم من قبل.

لقد اقترب النصر وأن أوانه ، ونحن على ثقة بوعد الله عز وجل لأوليائه وللمظلومين بنصرتهم والتمكين لهم.

وما هي إلا أيام حتى تشرق شمس الحرية عليك يا سوريا الحبيبة ، وترفرف في سمائك رايات النصر بعون الله وتأييده.

إني لأبصر ثغر فجر باسم *** ويضيء من رحم الظلام نهار

ويعود للشام السلبية عزها *** ويصيّب عرش الظالمين بوار

المصادر: